

روح المعاني

وقال الراغب : البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر والبأس والبأساء في النكابة وقرأ أبو بكر بيئس على فيعل كصيغم وهو من الأوزان التي تكون في الصفات والأسماء والياء إذا زيدت في المصدر هكذا تصيره إسما أو صفة كصقل وصيقل وعينه مفتوحة في الصحيح مكسورة في المعتل كسيد ومن هنا في قراءة عاصم في رواية عنه بيئس بكسر الهمزة إنها ضعيفة رواية ودراية ويخففها أن المهموز أخو المعتل وقرأ ابن عامر بيئس بكسر الباء وسكون الهمزة على أن أصله بيئس بياء مفتوحة وهمزة مكسورة كحذر فسكن للتخفيف كما قالوا في كبد كبد وفي كلمة كلمة وقرأ نافع بيس على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذيب لسكونها وإنكسار ما قبلها وقيل : إن هاتين القراءتين مخرجتان على أن أصل الكلمة بيئس التي هي فعل ذم جعلت إسما كما في قيل وقال والمعنى بعذاب مذموم مكروه وقرئ بيس كريس وكيس على قلب الهمزة ياء ثم إدغامها في الياء وقيل : على أنه من البؤس بالواو وأصله بيوس كميوت فأعل إعلاله و بيس على التخفيف كهين و بئس بزنة اسم الفاعل أي ذو بأس وشدة وقرئ غير ذلك وأوصل بعضهم ما فيه من القراءات إلى ست وعشرين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل بما كانوا يفسقون متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولا ضرر فيه لإختلافهما معنى أي أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب فسقهم المستمر ولا مانع من أن يكون ذلك سببا للأخذ كما كان سببا للإبتداء وكذا لا مانع من تعليله بما ذكر بعد تعليله بالظلم الذي في حيز الصلة لأن ذلك ظلم أيضا ولم يكتف بالأول لما لا يخفى فلما عتوا أي تكبروا عن ما نهوا عنه أي عن ترك ذلك ففي الكلام تقدير مضاف إذ التكبر والإباء عن المنهي عنه لا يذم قلنا لهم كونوا قردة خاسئين صاغرين أذلاء مبعدين عن كل خير والأمر تكويني لا تكليفي لأنه ليس في وسعهم حتى يكلفوا به وهذا كقوله تعالى : إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون في أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل والظاهر أن الله تعالى أوقع بهم نكالا في الدنيا غير المسخ فلم يفعلوا عما كانوا عليه فمسخهم قردة .

وجوز أن يكون المراد بالعذاب البئس هو المسخ وتكون هذه الآية تفصيلا لما قبلها روي عن ابن عباس أن اليهود إنما افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم وهو يوم الجمعة فخالفوا إلى يوم السبت واختاروه فحرم عليهم الصيد فيه وابتلوا به فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمنا حتى لا يرى الماء من كثرتها فمكثوا ما شاء الله تعالى لا يصيدون ثم أتاهم الشيطان فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض والشبكات فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه ثم يأخذونها يوم الأحد وفي رواية أن رجلا منهم أخذ حوتا

فحزمه بخيط ثم ضرب له وتدا في الساحل وربطه فيه وتركه في الماء فلما كان الغد جاء فأخذه وأكله فلاموه على ذلك فلما لم يأتهم العذاب أخذ في السب والقابل حوتين وفعل ما فعل ولم يصبه شيء فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم تجاسروا فأخذوا وملحوا وباعوا وكانوا نحو من اثني عشر ألفا أو من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا كما قص الله تعالى فقال المسلمون للمعتدين نحن لا نساكنكم فقسّموا القرية بدار للمسلمين باب وللمعتدين باب وكانت القصة في زمن داود عليه السلام فلعنهم فأصبح المسلمون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا : إن لهؤلاء لشأنا لعل الخمر غلبتهم فعلوا على الجدار فإذا القوم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الأنس أنسابها منها فجعلت تأتي إلى نسيبها فتشم